

فَكَاهَات

﴿ كَفَّارَةٌ هَائِلَةٌ ﴾^(١)

كان في باريز سنة ١٨٧٠ طبيبٌ يدعى الدكتور ريبو نحيف الجسم اصفر الوجه اصلع الرأس تنبعث من عينيه نظراتٌ جذابة تشف عن ذكاء باهر وتنبئ عن دماغٍ قد وعى الطبَّ والفلسفة في وقتٍ معاً وجملة منظره تدل على انه رجل ميال الى الاحسان وفعل الخير وقد رأى من مصائب البشر وما تبثليهم به الطبيعة من الادواء والاسقام ما جعله حنوناً شفيقاً يعطف على كل مريض ويميل الى معالجة كل عليل لا فرق عنده بين غني وفقر . وكان في وقت الحادثة التي نرويها قد احرز ثروة طائلة غير ان الغنى لم يبطره ولم يبدل من خلائقه كما نرى في كثيرين من الناس بل لم يستفد من غناه سوى جماعة الفقراء فكان اذا دخل منزل مريض فقير يصف له الدواء ويوعز الى الصيدلي باعطائه اياه مجاناً ثم يترك له شيئاً من المال يستعين به على اتخاذ الغذاء الملائم له وغير ذلك مما تقتضيه حالة المريض . وقصارى الكلام انه كان يعتبر الفقير مصاباً بمرض الفقر ومرض الجسم فيعالج المريض ويداوي الدآين هذا بطبه وذاك بماله .

وحدث في احد الايام انه دُعي لعيادة طفلةٍ تقيم مع والدتها في غرفة رطبة قليلة النور والهواء ليس فيها من الاثاث سوى سرير الوالدة ومهد

(١) معربة عن الفرنسية بقلم خليل افندي الجاويش احد منشئي جريدة الاهرام

الطفلة وكلاهما يدلّ على شقاء مبرّح وفقر مدقع والوالدة فتاة لا يزيد عمرها على العشرين يدلّ اصفرارها ونحولها على انها من العاملات اللواتي يشتغلن طول النهار لكسب ما يسدّ الرمق ولكنها مع ذلك جميلة الوجه رشيقة القوام ذات شعر اذكن طويل وانفٍ اذلف وفم صغير كأنه خاتم عقيق وشفتين بلون المرجان . فعند ما دخل الطبيب عليها نهضت لتريه ابنتها واخبرته بما تعلمه من امر مرضها فجسّ نبضها وعاین لسانها فرأى انها مصابة بحمى خفيفة ناشئة عن زكام شديد فوصف لها بعض ما يوصف في هذه الحال وانصرف على ان يعود في اليوم الثاني بعد ان اراح فكر المرأة من جهة ابنتها . وعند ما وصل الى منزله شعر بحمى وآلام عصبية فلزم فراشه وبعث يستدعي احد رصفائه لمعالجته

وفي المساء اشتدّ مرض الفتاة الصغيرة فجذعت والدتها ودعت امرأة فاضلة تدعى مدام مورو لتقوم على تمريض ابنتها فلما وقعت عينها عليها التفتت الى الوالدة وقالت لها ان ابنتك مصابة بالخناق (الدفتيريا) فيجب ان يستدعي لها طبيب في الحال وانا ذاهبة لاستدعاء الطبيب . ثم خرجت وسارت تواء الى منزل الدكتور ريبو فعلمت انه مريض لا يقدر على مفارقة السرير وأرشدت الى منزل صديق له يدعى الدكتور مارسيل اتيان كان يقوم مقامه حينما يمرض او يغيب فاسرعت الى منزله فقيل لها انه ذهب لعيادة مريض ولا يعلمون متى يعود فاخبرت خادمة بمكان المريضة ودارت تبحث عن طبيب آخر فلم تجد طبيباً يرافقها في تلك الساعة من الليل فرجعت وهي في اشدّ حالات القلق

وفي صباح اليوم التالي اتى الدكتور مارسل وكان الداء قد غيَّب الفتاة عن رشدها واطار بعقل والدتها فاصيبت بنوبة عصبية شديدة فاخذتها مدام مورو الى منزل بعض الجيران وقامت وحدها على تريض الفتاة . قدنا الطيب وفحصها فوجدتها قد صارت الى حالة لا يكاد يرجى معها شفاء فكتب صفة دواء لها وذهب هو نفسه واتاها به وجرعها اياه فتقيأت ولكنها لم تعد الى رشدها ولم تنخفض درجة حرارتها . ورأى انه اذا نقلها الى المستشفى توفيت قبل ان تصل اليه فخرج مسرعاً وعاد بانبوب من المطاط (الكاولتشوك) وادخله في حلق الفتاة ووضع فيه على طرفه واخذ يمسكه بجميع انفاسه فاندفعت منه مواد صديدية منتنة وانتعشت الطنلة فعادت تنفس براحة وسهولة . واعاد الطيب عمله حتى ايقن ان مسالك النفس قد نظفت من كل مادة فاسدة فكوس اطراف الحلق ليزيل الاغشية الكاذبة ووصف لها شرباً مسكناً للتشنج العصبي ووضعها على سريرها فرحاً مسروراً ثم تمضمض بماء ممزوج بالخل وغسل وجهه ويديه . ولما فرغ قالت له مدام مورو هل بقي من خطرٍ على الفتاة فاجاب اما الآن فلا الا اذا طرأ عليها شيء جديد يتلف ما عماته . فقالت شكراً لك وصان الله شبابك فقد انتقذت من الموت فتاة لطيفة وحيدة لوالدتها ولا شك في ان هذه الوالدة ستطير فرحاً حينما تعلم بان ابنتها مارسل قد نجت من الخطر فقال الطيب وقد ظهرت عليه امارات الدهش وهل اسم الفتاة مارسل . قالت نعم . فدنا من سريرها وتفرس في وجهها وتأمل هنيهة ثم قال وقد برقت اسرة وجهه وارتعش بدنه واظن ان اسم والدتها جنثياف .

فقلت نعم جنيفاف لكبير . فملاً الدمع جفونه وقال لقد اصببت اذا واين هي والدتها . فقلت عند الجيران واخبرته بما كان من امرها فزادت دهشة الطبيب وصمت صمت من يفكر في امر خطير ثم وصف دواءً ودفع الورقة الى المرأة ومعها ورقة مالية بقيمة مئة فرنك وقال احضري هذا الدواء واسقي منه والدته الفتاة جرعة كل ربع ساعة الى ان تنام وعندما تستيقظ يتولاها البكاء وتطالب ان ترى ابنتها فتولي لها ان حالتها احسن وعندما تراها اخبرها انها خلصت من الخطر ثم قولي لها اني ساذورها غداً واما الفتاة فلا تسقيها سوى لبن فاتر . قال هذا وسار الى منزله تعباً منهوك القوى ولبس رداء النوم واستلقى على مقعدٍ ليسترى ولكنه شعر بحمى لم تدعه ينام واخذ صداعاً في رأسه ودواراً شديداً ثم اخذ ينتفض من الحمى فانتقل الى سريره واكثر من الاغطية فوقه ليسترد الحرارة فظل بارداً كقطعة من الثلج واصابته اعراضٌ اخر ايقن معها انه قد أصيب بسم الداء . ولما سكن قليلاً وتغلب عقله على ذلك الخوف المركب في كل انسان نهض فجلس الى مكتبه وكتب رسالتين احداها الى امين ماله وكاتم اسرار حسابه والاخرى الى الدكتور ريبو وهو من اصدقائه وهذا نصها

« ايها الصديق

انا مصابٌ بالدفتيريا وقد اعداني بها ولدٌ مريض وليس لي امل في الشفاء منها كما تعلم فاسألك ان تعجل في المجيء الي بصنّة صديق لا بصنّة طبيب
مارسل اتيان

فسار الدكتور ريبو وهو حزين آسف وعندما وصل الى منزل

صديقه وجده واقفاً يخطر في الزفة وصري اسنانه يسمع من الباب اشدة
الحمى فلما رآه مدَّ اليه يده مسلماً وقال له انني دعوتك لا لمعالجتي لا اني
عالم بانني مائت لا محالة وان دآئي لا دواء له ولكن لأفضي اليك بسر
حياتي الوحيد وأكل اليك انفاذ مشيئتي الاخيرة بامانة وحزم . فاخذ
الدكتور ريبو يده وضغط عليها علامة الوداد الاكيد وقال له تكلم
يا صديقي وسلني ما تريد فأقسم لك على انفاذه كما تحب . فقال مارسل انني
اخذت جرثومة المرض الذي سيودي بحياتي في الليلة البارحة وانت ترى كم
برح بي الى الآن فقل لي الى متى ابقى مالمكأرشدني . فتهرس فيه الدكتور
ريبو وقال الى اربع وعشرين ساعة فيما اظن . فقال مارسل وهو الذي اراده
واحس به من نفسي وها اني اشرح لك امري

كتبت الى امين مالي ان يكتب لي وصية على مقتضى الاصول
المرعية تقوم انت على انفاذها وبموجبها اهب كل مالي للفتاة لكبير
وهي الفتاة التي اتاح لي القدر ان افديها بروحي . والسبب في ذلك انني
ارتكبت جرماً عظيماً فقد رلي ان اكفر عنه بهذا الفداء لان الفتاة هي
ابنتي وقد احببت والدتها ثم فارقتها وتركتها عرضة لكل شقاء وبلاء بسبب
وشاية ونميمة وتلك المرأة هي التي رأيتها انت قرب سرير ابنتها وقد اصيبت
بهياج دماغي شديد اورثها مرضاً ثقيلاً انوط بك معالجتها منه ثم لا بد
ان ألقى اليك ما تخفف به مصابها بعد ذلك وهو تاريخ ما سلف بيني وبينها
منذ عرفتھا الى هذه الساعة . وذلك اني كنت منذ اربع سنوات مقيماً بغرفة
صغيرة في الطبقة الخامسة من منزل بشارع سانت جاك وامامي باب غرفة

تسكنها فتاةٌ وحدها وكانت تذهب كل يوم في الصباح فتأتي بشغلٍ لها وتعود مساءً ومعها ازهارٌ منشورة بقصد حبكها فأرسل لها قامةً رشيقةً ووجهًا صبيحًا مليحًا ولكنني ما سميت الى التعرف بهذه الجارة ولا هي سمعت الى معرفتي . وحدث في مساء احد الايام ان الحاجة قرعت بابي وابلغتني ان الفتاة مصابة بألم شديد فلبست واخذت من صيدليتي زجاجة من سائل الايشير وقرعت باب جارتي ففتحت لي الحاجة فدخلت فرأيت الفتاة مستندة الى مخدتين فسألتهن عن مرضها وسقيتهن قطرات من السائل فانتعشت ولما رأيت عندها سكونا وراحة كتبت لها حبة دواء لليوم الثاني واوعزت الى الحاجة بان تسقيها من السائل اذا تجددت نوبة المرض وعدت الى غرفتي

وبعد ايام عوفيت جارتي فأتت تفرع بابي ودخلت وقد صبغت وجهها حمرة الخجل فاجلستها على كرسي فجعلت تشكرني على معروفي وكان احمرارها يزداد حتى اوشك الحياء ان يحبس لسانها عن الكلام . وكان في يدها قطعة من الذهب تقليبها من اصبع الى اصبع ولا تعرف كيف تقدمها اليّ فعرفت سبب خجلها وضحكت وقلت لها بلطف وبشاشة لقد ادركت ايتها السيدة ما هو غرضك من زيارتي واقول لك انني لا اقبل اجرة من جيرانني وقد اكتفيت بشكرانك وحسبته أكبر اجرة لي عن صنيعي فلا تكوني خجلةً مني

فكررت شكرها وثناها بعبارات هي آية اللطف والحشمة وعند ما نهضت للانصراف قالت لي انك لا نسأ عندك ولا بد انك تحتاج الى

مثلي لترتيب امتعتك وغسل ملابسك وما شاكل ذلك من الشؤون المنزلية
وانا عاملة ماهرة فاذا اردت فسلم كل ما تريد غسله الى الحاجة وانني آتي
كل يوم وارتب مخدمك فقبلت وشكرتها فخرجت مسرورة . ومن ذلك
الحين أخذت الالة تصل اسبابها بيننا ثم تحولت الى حب ففرام فهمام
وكان اسم الفتاة جنثياف وعمرها اذ ذاك سبع عشرة سنة ولها رواء جمال لم
يغيره الشقاء والفقر والتعب وقد اعجبني منها على الخصوص ادبها وحياءها
وصبرها على مكاره الحياة وما هي فيه من البشاشة والطلاقة مع انفرادها
وعزلتها وكانت كل مساء تأتي الى غرفتي وتقوم بما لديها من العمل فاحسب
الغرفة ترقص طرباً بوجودها وينير جمالها ظلام وحدتي فكانها ملك ارسله
الله لتعزيتي . فسؤل لي الحب مع ما انا فيه من الانفراد في غربتي تلك
ان اتخذها زوجة لي فاستأجرت لي منزلاً في بعض احياء المدينة ولم ألبث
ان عقد لي عليها وعشت واياها عدة اشهر ونحن في اتم السعادة والغبطة
وفي تلك الاثناء وردني كتاب من احد اقاربي يخبرني بان والدي
الشيخ مريض مرضاً ثقيلاً فلم اجد بداً من السفر لمشاهدته والنظر في
علاجه ان امكن وللحال تجهزت للرحيل فودعتني ودموعها تسقي خديها
وقبلتني بحنو غريب كانها تراني لآخر مرة في حياتها او حياتي وما زالت
واقفة تلوح بمنديلها الابيض حتى غاب القطار عن بصرها
ولما وصلت الى وطني وجدت والدي سقيماً هزياً فجعلت اعالجه
حتى قوي قليلاً واسترد بعض العافية . وكنت اكتب كل يوم الى جنثياف
فتجيبني على كل رسالة وفي صباح احد الايام وردني كتاب من احد معارفي

يذكر لي فيه انها قد لحقت بالنساء الخليعات المنهكات فهاجمني هائج
الغضب وحب الانتقام وبعثت اليها برسالة اوبخها فيها على خيانتها واخبرها
انني لن اعرفها من بعد ولن ترى وجهي ولا رسائي وختمت الرسالة بان
قلت لها ان كتابي لا يصل اليها الا وانا قد قطعت اميالا كثيرة على ظهر
البحر مسافراً الى حيث لا تعلم . ولما كان والدي قد تماثل من مرضه
نهضت من ذلك اليوم وودعته وانا لا اعلم الى اين اذهب لاني رأيت الدنيا
قد ضاقت في وجهي واتفق وجود سفينة مسافرة الى اميركا فركبت وانطلقت
السفينة بنا تمخر عباب البحر حتى انتهت الى نيويورك . فاقمت بها نحو الشهرين
وانا لا يطيب لي مقام ولا يهنا لي عيش لما اثر عليّ من تلك الصدمة وقد
داخلي شيء من الندم لانه خامر افكاري ان الامر قد يكون مكذوباً
فيه فاخذت الوم نفسي على تسرعني في قطيعة من شاطرتها حظي وحياتي
ولم يأخذني قرار حتى صممت على الرجوع الى باريز والبحث عن الامر . ولما
وصلت اليها انطلقت تواءاً الى المنزل الذي كنت استأجرته وسألت عن جنثيا ف
فقيّل لي انها قد اخلت المنزل منذ ثلاثة اشهر فباعت ما فيه من الاثاث
وانطلقت بطفلها الى حيث لا يعلمون غير ان صاحبة المنزل قالت انها
علمت منها ان لها عمّة في داخلية البلاد وانها ذهبت لتقيم عندها . فوقع
هذا النبأ عليّ وقوع الصاعقة لاني علمت انها بريئة مما اتهمت به ثم شعرت
كأن فؤادي قد انتزع من بين جنبي وتبع الطفل الذي ولدته بعد غيابي
وجعلت منذ ذلك اتنسم اخبارها فلم اقف لها على اثر . وبعد ان طفت ما
شاء الله في تفقد المظان التي قد تكون رحلت اليها ولم اصادف الا اليأس

رجعت الى باريس وعكفت على العمل عليّ اجد به راحةً لضميري وتخفيفاً
 لاحزاني حتى ساقني القدر الى معالجة ابنتي نفسها واراد الله تعالى وارادته
 عدلٌ ان اضحيّ حياتي في سبيلها دون ان ادري وها اني اموت فداءً عنها
 وعن قليل سيبلغ والدتها خبر شفائها وخبر موتي في وقتٍ معاً . ولما كان
 الموت ولا بدّ آتياً والوقت اضيق من ان اعاود جنفياً واستغفرها عن
 زلتي بل الخجل وحده كافٍ لاني يقتلني عند اول نظرةٍ مني لها فاني
 اكلفك ايها الصديق ان تقوم مقامي بين يديها فتستغفرها عن ذنبي وتزيها
 عن فقدٍ وقد اوصيت بمالي للطفلة وانا اتكل عليك في انفاذ وصيتي
 وانتظر الموت براحةً وثقاً بانني قد كفرت عن جرمي موقناً بان جنفياً
 ستصفح عني من اجل ابنتها وان ابنتها لا تلعنني متى كبرت لاني اعطيها
 الحياة مرتين وضمنت لها السعادة ورغد العيش . فتعاون يا صديقي مع امين
 مالي على تربيتها وتأديبها وابذل صداقتك لي بالعناية بها فباركك حين مماتي
 كما كنت احبك في حياتي

وفي المساء اشتدّ المرض على مارسيل ودخل في النزع حتى اذا طلع
 الفجر فاضت روحه محمولةً على بساطٍ من النور الى عالم الارواح ومقرّ
 الخلود

اما جنفياً فلم تستردّ رشدها الا بعد موته بايام عديدة فتلطف
 الدكتور ريبو في ابلاغها خبر وفاته وندامته وما فعله بتركته فبكته اشدّ
 بكاءً وزادها موته حسرةً على حسرة وكان جسمها قد اتحل وتواترت عليه
 الامراض بعد ما مرّ بها من الحزن فلم تلبث ان توفيت في شهر نوفمبر من

سنة ١٨٧١ نلحقت بزوجها ودُفنت بجانب مدفنه

ومن غرائب الاتفاق ان الدكتور ريبو تعرف بمدة موت صاحبه بتاجر بلجيكي اتى باريس فقيراً وتعالى الكتابة عند تاجر كبير يتجر ببضائع اميركا الجنوبية ومحاصيلها ثم اعزل مختلفاً لكتابه جميع انواع تجارتها فاستلم الكاتب المحل وتزوج ورزق ولداً سماه ادمون . وكان ادمون يكثّر من التردد الى منزل الدكتور فأحب الفتاة مارسيل وأحبته ودرى الطبيب بما بينهما من الحب فاقترح على والد الفتى يوماً ان يزوجه بها فاستنكر الامر لاوّل وهلة وكبر عليه ان يزوج ابنته بنتاً يتيمة لا يعرف والدها وان تكن كالة الالم والادب . ولكن لما قصّ عليه الدكتور قصتها كما تقدم دار عقله ذهولاً ودهشةً لانه عرف ان جنيفاف هي شقيقتها وكانت قد غادرت منزل والديه على اثر وفاتها واتت باريز تطلب زرقاً نظيره ولم يتسنّ له ان يراها ولا تسنى لها ان تراه فعاشا غريبين متباعدين في مدينة واحدة حتى حدث ما حدث وروى له الدكتور ما روى فأحزنه وأفرحه . وبعد شهر عند اكليل ادمون ومارسل وكنا كل اسبوع يذهبان مع الدكتور ريبو الى المدفن فيضعان باقة من الورد على قبر جنيفاف ويضع الدكتور ضمة من البنفسج على ضريح صديقه ويسقيها بدموعه وكان قد حلف منذ اليوم الذي توفي فيه حبيبته ان لا يعالج الا اطفال الفقراء الى ان اهاب به دائي المنون فاجتمع الحبيبان في دار البقاء